مأساة واق الواق
ملحمة الحرية والخلاص الوطني

د . عبد العزيز المقالح

إشـــارات

للشاعر الكبير الشهيد محمد محمود الزبيري ، الكثير من الكتابـــات الفكرية والسياسية ، ظهر منها قبل رحيله كتابان هما: الخدعة الكبرى ، والإمامة وخطرها على وحدة اليمن ، كما ظهر منها بعد وفاته كتابـــان آخران هما : دين وثورة ، ومنطلقات نظرية . و له من الكتابات الإبداعية النثرية عمل روائي وحيد هو "مأساة واق الواق" ، موضوع هذه القراءة المتواضعة التي أنجزتها بمناسبة مضي أربعـــين عامـــاً علـــى استشـــهاده "١٩٦٥م". ولا أخفي ، أن هذا العمل الروائي الوحيد للشاعر الشهيد قد أوحى لي بمجموعة من الخواطر التي لم تشملها القراءة ، ومنها أن شهيدنا وشاعرنا الكبير كان يطمح إلى كتابة أعمال فنية خارج إطار فن الشـــعر الذي اشتهر به ، كرسالة منه إلى الجيل الجديد من المبدعين اليمنـــيين، أن لا يقفوا عند حدود كتابة القصيدة التي كادت تكون كل الأدب في يمن ما قبل الثورة ، وأن يتجهوا نحو عالم القصة، والرواية والمسرح ، لما لهذه الفنون من تأثير على الشعوب ، ومن قدرة على إحداث حراك اجتماعي وفكري وسياسي .

وإذا كانت الظروف السياسية للشاعر الشهيد قد حالت دون تحقيق ذلك ؛ فإنه كان يتمنى أن يجد بين مبدعي اليمن في عهده الجديد من يُعْنى بهذه الفنون ، ويبدو أن تلك الأمنية قد تحققت، وبدأ المبدعون الشـــبان يتجهون فرادى وجماعات إلى هذا النوع من الكتابات السردية ، حـــتى صار لنا منها في وقت قصير عدد لا يستهان به سيما في مجـــال القصـــة القصيرة .. ولا تفوتني – في هذا الصدد– الإشارة إلى أن كل محاولة لسبر غور شخصية الزبيري الشاعر والشهيد والمناضل لا تتم إلاَّ بقراءة هـــذا النص السردي الملحمي الذي كان خاتمة كتاباته الإبداعيـــة والسياســـية وخلاصة فكره الروحي والثوري معاً ، أما أولئك الذين حاولوا ويحاولون البحث عن صورته وعن مواقفه في الكتابات السياسية والحزبية بخاصـــة تلك التي أعدها الآخرون فإنهم يظلمون الرجـــل ويظلمـــون الحقيقـــة ، ويقدمون للقارئ إنساناً آخر من صنع أوهامهم وخيالاتهم ، ومن المؤسف أن تروج بيننا نحن معاصري هذا العلم الوطني الثوري كتابات تنـــز كذباً وتفيض حقداً وشتماً مغلفاً بأكاديمية عارية عن كل موضـــوعية طالتـــه انتقاماً من نقائه وأستقامتة مواقفه . هذه إشارات وددت أن أضعها بـــين يدي القارئ في مفتتح قراءتي لروايته (مأساة واق الواق) .

في البدء ، تجدر الإشارة إلى أنه ليس صحيحاً ما يقال بأن هناك معايير كونية عالمية للكتابة الروائية ، والدليل الأقرب إلى ذلك هذه النماذج الروائية العربية والعالمية التي تثير اهتماماً رائعاً ومدهشاً، من خلال اختراقها لتلك المعايير . وحتى الشعر – هذا الذي كان النقاد يرون إلى وقت قريب أنه حالة إبداعية خاضعة للانتظام الشكلي صار بفضل التجريب – ولا أقول الفوضى- أبعد ما يكون عن هذا الذي يدعى بالانتظام ، ووصلت حالة التصادم بين قديمه وجديده إلى درجة تصعب معها المتابعة ، علماً بأن هذا التصادم لا يقف عند حدود المفاهيم الشكلية؛ وإنما يتعداها إلى الوظيفة أيضاً . وهذا ما يؤكد حقيقة المقولات التي ترى أننا على أبواب ثورة معرفية جديدة، ترى في الخروج على الأنماط المتعارف عليها في الآداب والفنون وسيلة للتجدد، وموعداً مع الاتجاه الصحيح نحو فنون المستقبل وآدابه .

ومن هنا ، فالمنجز الروائي العالمي والعربي على حدٍ سواء لا يأخذ صيغة واحدة ، ولا يكرر أشكاله ، القديم منها والجديد ، التراثي والحداثي . وابتداءً من ثورة "جيمس جويس" في روايته المثيرة للجدل "يوليسيس"،وما صحبها وتبعها من تطورات في لغة الرواية وتشكلاتها ، إلى الرواية الأمريكية اللاتينية وواقعيتها السحرية ، وإلى صيحة الاستفادة عربياً من أسلوب السرد القديم، التي بدأت عند محمود المسعدي في تونس، واستقامت مع جمال الغيطاني في مصر ، والفن الروائي لا ينفك يأخذ أشكالاً تغاير بعضها بعضاً، قد تنطلق بعض تلك الأشكال من الماضي الموجود في تكويننا النفسي والثقافي، أو تنطلق من رؤية جديدة تؤسس لآفاق مستقبلية . وتبدو إشكالات التغيير في الرواية، وفي الفن السردي عموماً أهون منها في الشعر؛

بصفتها رؤية عقلية تخضع للمنطق والتخطيط، وعلى العكس من ذلك كان الشعر في عصوره القديمة، أو في عصره الحديث .

ومن الروايات التي لا تبرح الذهن أبداً – والذهن اليمني بخاصة- رواية "مأساة واق الواق" للشاعر الشهيد محمد محمود الزبيري ، وما دار حولها من مناقشات مكتوبة وغير مكتوبة ، ومدى تمثلها أو عدم تمثلها لفن السرد الروائي؛ كون كاتبها شاعراً غير متمرس بفن كتابة القصة القصيرة، أو الرواية أو أن زمن كتابتها لم يكن يسمح بالنضج الكافي والتوفر على التقنيات اللازمة ، وانطلاقاً من هذه التوطئة السابقة؛ فإن هذا العمل الروائي الملحمي الوحيد للشاعر الراحل يندرج بنجاح في إطار الأعمال الروائية العربية والعالمية، بما امتلكه من مقومات بنية الرواية، وما اختزنه من سرديات الحكى الروائي . وإذا كان خطابها الشعري قد طغى على خطابها القصصي؛ فإن ذلك راجع إلى أن هذه القصيدة التراجيدية التي اخذت شكل الرواية، وصدرت ضمن محاولة الخروج من تأثير المناضل السياسي الذي سكن وجدان ذلك الشاعر ليحقق نزوعه إلى التنويع، والتواصل بالسرد والقص معاً، لعلهما يكونان أكثر فاعلية في الارتقاء بالوعي الوطني لدى الإنسان اليمني العازف عن القراءة. والحريص على متابعة الملاحم الشعبية، وأحاديث البطولات التاريخية الخارقة كسيرة سيف بن ذي يزن وعنتره أبن شداد وأبي زيد الهلالي. والحق أن هذا العمل الروائي الشعري حقق ما لم تحققه آلاف القصائد التحريضية والهجائية للنظام المباد، ونجح من خلال استخدام تقنية ليست مبتكرة تماماً في التقاط صور الواقع المذهلة والمرعبة، وخروجه بصور مدهشة ومثيرة تلاقى الواقع والخيال في صنعها .

لم يبدأ محمد محمود الزبيري كتابة روايته من الصفر، فقد سبقه عشرات من الروائيين العرب ، وحتى في اليمن نفسه ، فقدسبقت جهده الروائي محاولتان على قدر من الأهمية الريادية هما: راوية "سعيد" للمحامي محمد علي لقمان، ورواية "يوميات مبرشت"، للصحفي الطيب أرسلان، لكنني أشك في أن الزبيري قد اطلع على هاتين الروايتين، وإذا كان قد اطلع عليهما؛ فإنه لم يستفد منهما من قريب أو بعيد لا في الأسلوب ولا في الفكرة كما سنرى في البحث . ويشير عدد من النقاد الذين تناولوا "مأساة واق الواق" إلى أن الزبيري كان ينظر- أثناء كتابتها- إلى نموذجين سرديين عربيين على درجة عالية من الشهرة هما "رسالة الغفران" لأبي العلاء المعري ، و"حديث عيسى بن هشام" لمحمد المويلحي ، لما يجمع بين هذين العملين ورواية الزبيري من لقاء بين عالمي الدنيا والأخرة . والحق أنني لا استطيع أن أثبت، أو أنفي إن كان هذا الروائي الشاعر قد نظر إلى أي منهما، أو اليهما معاً ، فالصيغة التي اختارها لروايته لا تحتاج إلى تأثر، ويمكن التقاطها دون جهد ، مما يتحدث فيه الناس عن الثواب والعقاب ومشاهد الجنة والنار ، وهذا لا يقلل من أهمية التأثر والتأثير ، فالتناص أدبياً وفنياً غير مستبعد ، ولكن مصدر شكوكي يأتي من حيث أنه لو كان قد اطلع على أحد هذين العملين أو تأثر بهما لكان قد تفادى فكرة تحضير الأرواح أو التنويم المغناطيسي ، ولكان له في "فكرة المنامات" مندوحة، وكانت رحلته الشاقة إلى عوالم الجنة والنار انطلاقاً من التعبير المشهور "رأيت فيما يرى النائم" والاستئناس بأسلوب أبي العلاء في الدخول إلى الجنة والنار والحوار مع المشهورين من أقطابهما . ولماذا لا نقول أن الزبيري عرف كيف يستلهم التراث الديني ويستصفي منه قصة (الإسراء والمعراج) وما حفلت به من رموز الخير والشر ومرائي الجحيم

والنعيم. وقد كان لناقد أكاديمي رأى مغاير لما ذهب إليه بعض الدارسين للرواية إذ رأى إن الزبيري في مأساة واق الواق ((يندرج مع كثير من الفلاسفة ، أمثال أفلاطون والفارابي ممن كانوا يتشوقون إلى مدن فاضلة ، فالجنة في خياله هي نموذج لمدينة فاضلة يبحث عنها)) [1] .

ولا تغيب عن البال تلك الدراسة الجادة للشاعر والناقد عبد الودود سيف إذ فصّل بالمقارنة وجوه التشابة والتأثر بين الزبيري و "دانتي" من جهة وبين الزبيري و"ميلتون" من جهة أخرى ، فضلاً عن إشاراته الذكية إلى جذور مأساة واق الواق في التراث السردي العربي مثل ألف ليلة ورسالة الغفران مع ملاحظة احتراز الكاتب في ختام دراسته القيمة حول تحديد ((الشكل الفني الخاص ومجمل بناء مأساة واق الواق)) [2].

لقد تنقل الروائي في مأساته من الواقع المفرط في قسوته، وبؤسه، ووحشيته إلى الخيال المفرط في روعته، وإدهاشه، وجلاله، وجماله . وكان بين هذين العالمين شاعراً يمتلك القدرة الخلاقة على وصف ما يراه بلغة مبهورة، نجحت في نقل انبهاره وروعته ، وأعطت لقارئه لحظات من السعادة، والتتبع الملهوف، وهو يقطع المسافات الطوال بين الأرض من جهة والجنة والنار من جهة ثانية، ثم وهو معلق بين السحب مجاوراً الملائكة أو مصغياً إلى تعليماتهم ، وقدكان على الأرض كما كان على السماء شاعراً يمتلك من جمال اللغة وفن التعبير ما جعل من (مأساة واق الواق) قصيدة في رواية، ورواية في قصيدة . فقد اجتمع لها من سمة الخيال، وتدفق اللغة الشعرية ما جعل بعض مشاهدها قصائد منثورة ، واجتمع لها كذلك من تسجيل أحداث اليمن في مدها، وجزرها ما جعلها صورة دقيقة من الواقع بإمامه، ووشاحه وثواره،وشهدائه ومواطنيه ،وبأمل مستقبله وما يتمنى الأحرار أن يكون عليه وطنهم مستقبلاً .

والإشارة هنا ، إلى احتفاظ الزبيري بشعرية لغته العالية ، تفضي إلى تأكيد ما ذهب إليه "جون كوين" من أن ((شفرة اللغة الشعرية يمكن أن تنغرس جذورها في الملامح الشخصية للمبدع)) [٣] .

-٢-

كتب الزبيري روايته في أواخر الخمسينيات من القرن العشرين ، وبعض الوقائع التاريخية الواردة ، تؤكد على أن كتابتها تمت بين عامي ١٩٥٩-١٩٦٠م ، بل أنه يشير بصريح العبارة إلى تاريخ بداية الانطلاق نحوجمع أفكارها والبدء في كتابتها : ((في شهر الله الكريم رمضان عام ١٣٧٩هـ ، وفي الليلة السابقة والعشرات بالذات حيث الاحتمال كبير في أنها ليلية القدر المباركة التي تفتح فيها أبواب السماء لأهل الأرض يلجأ إليها المضيعون والمروعون)) [٤] ، وهي الفترة التي أعقبت إعدام الطاغية أحمد حميد الدين ، للمناضل الشاب حميد بن حسين الأحمر ووالده ، وما تركته تلك الجريمة الشنيعة في نفس الشاعر المناضل من شعور بالحسرة على رحيل ذلك الشاب، وذبحه كما تذبح الشاه ظلماً وعدوناً أمام عيني والده، وما أعقب إعدام الأب والأبن من غارات عسكرية على قبيلتي حاشد وخولان، وهو ما التقطه الكاتب، وصنع منه أبرز المحاور الواقعية في الرواية التي دارت أهم وقائعها –كما سبقت الإشارة- بين الأرض والسماء وبين الجنة والنار. حيث التقى الروائي بعدد من الشهداء والمناضلين الذين لم يبخلوا عن تقديم أرواحهم دفاعاً عن الوطن، وحرصاً على إنقاذه من قبضة الطغيان، والخروج به من كهف العزلة الذي وضعته فيه الإمامة المتوكلية ؛ خوفاً منها أن يرى النور، ويكتشف ما لحق به من تخلف ونكوص عن الانتظام في مسيرة التطور المعاصر التي كانت ارهاصاتها قد بدأت في بعض الأقطار العربية في القرن

التاسع عشر . وبقيت اليمن أو "واق الواق"، وهو الاسم الرمـــزي الـــذي اختاره لها الروائي ، ((مبتورة إلى جزئين : جزء ينهشه الاســـتعمار، وجـــزء يربض فيه الطاعون الرجعي . ويريد هذا وذاك أن يقّطعا شعب هـــذه الأرض تقطيعاً ثانياً، باسم المذاهب الدينية . وتقطيعاً ثالثاً باسم السلالات العنصرية ، وتقطيعاً رابعاً إلى قبائل ومدنيين ، وتقطيعاً خامساً ، وهو أخطرهـــا جميعـــاً وأشدهما فتكاً، لأنه يصطبغ بصفة متحضرة حديثة تحت شعار الديمقراطية — وذلك هو التقطيع إلى هيئات ومنظمات متناحرة، لها نشاط، وحياة، وعمـــل دائم دائب يواصل البتر والتقطيع، ويجعل لكل أنواع الانقسامات القديمة البالية التي يخجل المثقفون منها قناعاً حديثاً، ومنطلقاً عصرياً،ويحاول أن يجعل لهـــا وجوداً حياً بعد أن أوشكت على الاندثار. وكل هذه الانقسامات بأنواعهـــا قد وضعت عقبة في طريق التحرر، فرغم الإجماع النظري والنفســـي علـــى ضرورة الخلاص من حكم الوشاح ، فهناك حالة عامة من التلكؤ، والحـــيرة، والعجز، والشـــلل أصـــابت قضـــية التحـــرر في الصـــميم ســـبب هـــذه الانقسامات)) [٥] .

-٣-

تبدأ الرواية إذاً، أحداثها في الأزهر الشريف ، وفي ليلة القَـــدْر حـــين ذهب العزي محمود بطل الرواية وراويها حزيناً كئيباً حائر النفس إلى ذلـــك المكان، لعله يجد عنده بعض العزاء مما يعانيه وتعاني منه بلاده . وفي محـــراب الصلاة سمع كوكبة من علماء الأزهر يتحدثون في قضايا الـــدنيا والأخـــرة ، ويخوضون في هموم الأمم القريبة والبعيدة، لكنهم شأن كل من في مصر وبقية أقطار الوطن العربي لا يتذكرون اليمن، ولا يشيرون إلى مأساتها من قريب أو

بعيد . وكأن اسمها لم يرد عليهم من قبل . وعندما حاول باستحياء أن يحدثهم عنها، عن اليمن – واق الواق- وعن مأساتها الرهيبة فوجئ بأنهم لا يعرفون عنها شيئاً، بل لا يتذكرون اسمها، ولا موقعها من خريطة العالم . وبلغت بهم الحيرة في أمره وأمر بلاده إلى درجة الشك في حكايته، وذهب بعضهم إلى القول بأنه ربما يكون قد ((هبط علينا من طبق طائر في طفولته، فنشأ نشأة عربية، ونسي قصته، و لم يبق له من وطنه إلاَّ رؤيا حالمة)) .

لقد أراد العلماء مساعدة ذلك الإنسان الحائر الضائع ، ولكن كيف يتسنى لهم ذلك ويستطيع أن يعثر على وطنه ، إن كان له وطن ؟ هناك وسائل خرافية وأخرى علمية، وبعد أن استبعد العلماء أسلوب تحضير الأرواح كوسيلة للتعرف على وطن العزي محمود ، لما تتسم به من ضلال، وخداع للبسطاء من الناس، رأى أحدهم أن يترك الأمر للشيخ سعدان زكي ، وهو من هو في التقى والتبحر في العلوم الروحية قديمها وحديثها، ليقوم بالكشف عن اليمن – واق الواق-، عن طريق التنويم المغناطيسي ، وهو فن ((من الفنون النافعة المشروعة التي لا تتنافى مع الدين، ولا مع العلم))، وفي مقصورة خاصة في مسجد سيدنا الحسين رضوان الله عليه ، تم التنويم المغناطيسي، وفي دقائق معدودة استطاع الشيخ سعدان بإشعاعه الروحي الأخاذ أن ينيم العزي محمود ، ليبدأ رحلة البحث ((عن سر الغموض الذي يلف هذا البلد المسمى واق الواق، الذي ظل سراً مغلقاً على جميع أهل الأرض)) .

حاول الشيخ أن يطمئن العزي محمود ، وأن يزيد من تحريضه على التقاط كل ما يسمع ويرى، لكنه في غيبوبته، وقبل أن ينطلق بحرية نحو الفضاء قال : ((إني لست في حاجة إلى تشجيع، أو تحريض، أو أعداد ، إنني مضطرم كالجحيم باللهفة إلى لقاء بلادي، فاسرع بي يا أستاذي، وأطلق

روحي من محبسها؛ فإنني أكاد أتمرد عليك، وعلى جسدي، فانطلق بلا منوم أو تنويم))[٦] .

ومنذ مطلع الرواية تتغلب لغة الشعر على خصائص السرد النثـــري ، وترفض مخيلة الشاعر أن تنام حتى وهي تسبح مع روح دون جسد في الفضاء العريض العميق، يدفعها توق محموم إلى البلد الذي هجره، رغم أنفه، يساعده في البحث عنه ملاك رحيم، بعد أن أوصى به الشيخ سعدان خيراً، وماكاد- الملاك والعزي محمود- يعبران أجواء السودان، وإرتريا، والصـــومال ، حـــتى اعترضتهما ((غيوم متلبدة محمرة كأنها اللهب، نابضة بالحركة، كأنهـــا دمـــاء قلوب ... دافئة نبيلة كأنها أرواح قديسين ... كان الملاك يحاول اختراقها فلا يستطيع ، وأخذ يدور ويدور في غير جدوى، وأخيراً لاحت لنا فوق هـــذه الغيوم سفينة تشبه عش الطائر من بعيد، وفيها أضواء لألاءه، وحولها أشـــباح تذهب وتجيء ، واقترب الملاك من هذا العش السحري الضخم، وأذاننا تسمع صوتاً يسبح فوق الغيوم العجيبـــة، ويـــرف علـــى جنباتهـــا كأنـــه عطـــر سماوي.بقدسيته، وتبينت هذا الصوت شيئاً فشيئاً، فإذا بي أجد نغماً موزونـــاً كأنه الشعر))[٧] .

لقد اقتربا – الملاك والعزي محمود- من اليمن، وهما الآن فوق البحـــر الأحمر ، لكن الملاك يعتذر بأنه لن يستطيع أن يخطو أكثر نحو مصدر الصوت ذي النغم الجميل، وأن على العزي محمود ، أن يتابع الصوت بنفسه ، إلاَّ أنه اندهش، إذ رأى الملاك ينجذب نحو الصوت بلا إرادة منه، وفي تلك اللحظة لمح العزي محمود ((غادة بارعة الجمال كأجمل ما صاغته أشـــعة الشـــمس، وطهرته قدسية السماء، ورأيت على يدها مجدافين من عقيق أحمر تجدف بهما لسفينة العش وبين يدها حور كالأقمار، ولاحظت أنها لا ترتـــدي ملابـــس

النساء، وإنما ترتدي أجنحة كأجنحة الملائكة ، وأشد ما كانت دهشتي وحزني حينما رأيتها تبكي، وهي تنشد وتردد بصوتها السماوي هذين البيتين:

ضَيعت في صخب الأمواج الحاني

وخنت فني والآمي وأحزاني

عصرت روح بلادي أدمعاً ودماً

فقهقهت من صَنيعي خمرة ألحان " [٨] .

البيتان من قصيدة لهذا الشاعر الطائر بين الغيوم الدامية وماكان أوسع مدى دهشته أن يسمعهما من تلك الحورية الممسكة بمجدافها العقيقي . وحين رأته إلى جوار الملاك أطلقت صيحة الدهشة وقالت للملاك من أين جئت بهذا الإنسان؟ : ((قال الملاك لقد لقيته منطلقاً من مسجد سيدنا الحسين، أطلقته روح كبيرة من هناك ، ولكن لماذا هذا السؤال المتلهف ؟

قالت الحورية: إنه حفيد من أحفادي!!

الملاك: وكيف تعرفينه بهذه السرعة ؟

الحورية : إنه دمي كيف أجهله ؟

ثم استطردت الحورية قائلة: ألا ترى هذه الغيوم المتلبدة الحمراء ؟!

إنها قطرات من دماء الشهداء، أحفادي باركتها روح السماء ورفعتها إلى الأفق، فأصبحت بحراً لجياً مسحوراً في الفضاء كما تراها ، وقد سألت الله أن يخرجني من الجنة لأكون ربان هذه الدماء، أحرس طهارتها، وارعاها حتى لا تسقط قطرة منها إلى الأرض فتطؤها، وتلوثها أقدام المستعبدين، فتحزن لذلك أرواح الشهداء الأحرار ، وسأظل على ذلك حتى تتطهر طينة بلادي، ويتحرر العبيد من أحفادي ، وقد أقسمت على الله ما دام أحفادي عبيداً أن تبقى هذه

اللجة الدموية في سماء وطنهم، تمنع عنهم الغيوم السخية السمحاء التي كنت أعرفها في عهد أبي وأجدادي، والتي كانت بها أرضنا جنة من جنات الله))[٩] .

لم تكن تللك الحورية المتحدثة سوى "لميس" إحدى الملكات اليمنيات اللائي كن نتاجاً لحضارة إنسانية شهدها هذا الطرف القصي من الأرض العربية منذ أزمنة بعيدة. وهنا يتبين لنا أن الزبيري حاول في عمله الروائي هذا،كتابة ملحمة على غرار "الأليادة"، يخرج بها عن قبضة الأرض، وملابسات أهلها إلى فضاءات لا يتسع غير الشعر لاستيعاب مشاهدها ، فالشعر بدلالاته المنفتحة على المجاز يبقى الأقدر على الرحيل نحو تلك الأقاصي التي اختارها الشاعر، ليرحل عبرها بحثاً عن وطنه الأسير ليس ذلك فحسب ، بل إن الشعراء هم وحدهم الأقدر على الرحيل بالكلمات في الزمان والجغرافيا كما يشير إلى ذلك الشاعر الروائي الحائز على جائزة نوبل "جونتر جراس " ((إني أبقى في المكان وأفسح المجال للرموز ، ولي علاقة مباشرة بالجغرافيا والزمن))[١٠] . ومما لاشك فيه أن الشعر بمقدرته الفائقة نجح في تحقيق هذا الهدف . ولم يكن اللقاء بـ "لميس" وسماعها؛ وهي تقرأ من شعر العزي محمود إلاَّ انتصاراً للشعر نفسه، الذي استطاع في مناخ المهزلة التي تحولت إلى مأساة أن يكون الصوت الذي رافقه في حله وترحاله، حتى وقد أصبح خارج الأرض وجاذبيتها .

وليس من المبالغة في شيء تسمية هذا العمل بـ "ملحمة التحرير"، تحرير الشاعر نفسه من العجز عن مواجهة الطغيان بمفرده، وبقصائده، وتحرير وطنه من قبضة الطغيان المادي والمعنوي بالاستعانة عليه بأهم ما في حضارة

الماضي وهو الدور الذي اتيح للمرأة أن تقوم به ، وبأنصع ما في مقاومة الحاضر وهي دماء الشهداء:

((قال الملاك: لقد فهمت أنك حورية من أصل آدمي فما اسمك ؟

الحورية : اسمي لميس ابنة أسعد الكامل .

الملاك : لعل اسم بلدك هذا "واق الواق"، وهو البلد الذي تبحث عنه هذه الروح الأدمية التي كنت أحملها مادمت قد عرفتها من أحفادك ؟

الحورية : تشير إلى لُجة الغيوم التي لاحت؛ كأنها بدأت تغلي عندما سمعت اسم "واق الواق" وأمرتها بالهدوء . وقالت : نعم إنه هو ، وهو البلد المضطهد اليتيم الذي أجمع العالم على دفنه حياً فأقسمت أرواح الشهداء ودماؤهم أن لا يحرر الشعب إلاَّ نفسه، أو ينقرض ، وأن من مهمتي هنا بأمر الله أن أمنع حتى الملائكة من مساعدة هذا الشعب لأن لعنة الله ستنزل به وتحل بأرضه إلى الأبد إذا لم يتول هو بنفسه غسل العار عنه، وأن أخوف ما يخافه الشهداء أن يتصدى لإنقاذ شعبهم شعب آخر ولو كان شقيقاً ، بل أن تتصدى لإنقاذه حتى السماء ، لأن العار حينئذ لن يفارق اسمه، سيكون تحرره لعنة أبدية عليه ، على أن الله لا يساعد من لا يساعد نفسه)) [١١] .

– ٤ –

كان على العزي محمود ، أن يبدأ في رحلته الخيالية بزيارة الجنة للقاء الشهداء، والحديث إليهم، والاستفادة من تجاربهم ، وكان في انتظاره لجنة استقبال تتألف من رئيس هو: الشهيد عبد الوهاب نعمان ، وأعضاء هم : محمد صالح المسمري ، وزيد الموشكي ، والشهيد الضابط العراقي جمال جميل . ربما انتابه الزهو، وهو بين هذا العدد من زملاء النضال الذين

سبقوه إلى عالم الشهادة، فقد تبعهم بعد خمس سنوات فقط من رحلته الخيالية، وصار واحداً منهم لا يشكل دخوله إلى الجنة. الإشكالية نفسها التي حدثت عندما حاول الدخول إليها بروحه، وهو ما يزال حياً يرزق. فقد احتاج الدخول الأول إلى وساطات من أعلى المستويات، ولولا وساطة الخليفة الشهيد علي بن أبي طالب ونجله الإمام الشهيد الحسين لما نجحت كل التوسلات التي أظهرها الشهداء اليمنيون لتتم الزيارة التي هدفت إلى إقامة مؤتمر لدراسة مأساة بلادهم، التي طالت محنتها ومعاناة أبنائها. ولكن بعد السماح له بدخول الجنة كان عليه أن يقوم بزيارة لجهنم، وأن يتحمل ما لاطاقة له به من مناظر التعذيب وهول الجحيم ، وفي هذه الرحلة الرهيبة اتيح له أن يرى أنماطاً من أنصار الطغيان في مقدمتهم "خونة المعممين والقضاة " الذين باعوا ضمائرهم بالرشوة، واضطهاد الكادحين من المزارعين، وتضليل الجنود لصالح الطغاة ، ومن هؤلاء المعذبين المشائخ الخونة، وجواسيس النظام والصحفيون المنحرفون، وعلماء السوء وفقهاء التمذهب المتعصبون دعاة التفرقة ، ثم الأئمة الظالمون، و"الوشاح" الطاغية الحاكم في حينه، ثم عماد الطغيان الذي كان قد تحول بسبب حبه للمال إلى شكل ريال نمساوي، وهو العملة المتداولة في مملكة ذلك الحاكم فصورته الرواية بسخرية وتهكم، ((وصاح أحد الزبانية : هذا ما كنت تعبده من دون الله، وهذا ما سخرت الملايين الكادحين ليجمعوه في قصورك كأنه تركتك الخاصة، وهو الآن كما ترى تركة خاصة بك فعلاً ، بل هو قد أصبح أنت ... ثم أخذ هذا الملاك يعرض للمتفرجين الوجه الثاني لهذا الريال، فإذا هو قد كتب عليه : أنا من أهوى ومن أهوى أنا !!))[١٢] .

ولن نطيل الوقوف في الجحيم بكل ما تضطرب به جوانبها من صـــور التعذيب، وروائح شواء الأجساد الآدمية، ونسرع بالانتقال إلى الجنـــة لعـــل روائحها ومناظرها البديعة تخفف عن أرواحنا مرارة المرور بالجحيم .

كان أول حديث مطول مع أهل الجنة هو ذلك الذي دار مع الشـــهيد محمد صالح المسمري ، الذي كان يدندن بأبيات من الشعر ثم يداعب صاحبه قائلاً :

((ألا ترى أن صوتي أحسن مما كنت تسمعه مني في رواق الأزهر ..؟ والشعر؟ ألا تراني اليوم أشعر مني بالأمس ؟ ... أتستطيع أن تبارزني في الشعر أو في أنشاد الشعر .. كلا .. ولا تظنني يا صديقي مغروراً ، فقد احتاج الأمر مني لكي أملك هذا الصوت أن يقطع رأسي ، وتتجمع معجزات الجنة كـــي تعيد النظر في بنائي ، وتكوين كل ذرة في كياني على قواعد الفنون الجميلة في الجنة .. ألا ترى أني قد أرهقت ملكوت الله عسراً في سبيل تجميل صوتي !؟ فاضطرب العزي محمود من الخجل، وخشي أن يكون المســـمري جـــاداً في أسلوب الدعابة فقال : غفرانك اللهم .. أن أخي الشهيد المسمري لم يجد من يظلمة في الجنة، فتطوع لظلم نفسه ... مهلاً يا أخـــي إن عهـــدك بـــالظلم والظالمين قريب وهذا التواضع الشديد إن كان لا يؤذيك؛ فإنه لشد ما يؤذيني .. أرجوك .. أرجوك استمر في إنشاد الشعر بهذا الصوت الساحر ..فإنك – خليق أن تلهمني بهذه اللحظات أن أملك قدرة شاعرية نذرت لله أن أجعلـــها وقفاً لخدمة رسالتكم أيها الشهداء))[١٣] . هذا المشهد الذي الـــذي تمثـــل الشعرية في أرقى مستوياتها يذكرني بما كتبه تودروف عن الرواية الشعرية عند "نوفا ليس" حين قال أن شخصيات ذلك الروائي تبدو ((سلسلة متصلة مـــن

الأحداث الفريـــدة والمعقـــدة في آن معـــاً ، أحـــداث مذهلـــة ومتألقـــة ومشهودة)) [١٤] .

-٥-

لم ينشغل العزي محمود عن وطنه ومأساته بالجنة ومباهجها، وحتى الشهداء أنفسهم لم ينعموا بالسعادة المثلى في جهنم ؛ نتيجة ما انتابتهم من أحزان على وطنهم الذي لم يتخلص من شرور حاكميه .كما أدرك ذلك العزي محمود الذي لم ينسه الاحتفاء الذي وجده من الشهداء المهمة التي نذر نفسه لتحقيقها، وهو المؤتمر الذي سيتعين على كل اليمنيين الالتزام بكل ما سيتوصل إليه من مقررات وتوصيات من شأنها أن تضيء لهم الطريق للخروج من مأساتهم المزمنة . والشهداء لحسن حظ اليمن من كل القبائل، ومن كل المناطق، ومن كل الأسر؛ فقد أفرط الطغيان في القتل والتنكيل بالقيادات الكبيرة ظناً منه بأنه بذلك العنف سيقضي على ظاهرة الثورة التي كانت دائرتها تتسع ، وتأخذ مستويات عديدة للمقاومة . ولولا الخلافات التقليدية التي عرف الطغيان كيف يستغلها، ويضاعفها من خلال أساليبه الملتوية في تقريب هذه القبيلة وإقصاء تلك لكانت الثورة قد تمت منذ زمن بعيد .

ولكي تنجح مهمة العزي محمود ، كان لابد أن يلتقي بالشهداء القدامى سواء منهم أولئك الذين لقوا مصرعهم بعد استيلاء "الطاغية الكبير" على حكم البلاد مباشرة، والمتأخرون منهم من الذين ذهبوا صرعى سيف "الوشاح" أو الطاغية الصغير ، بعد رحيل والده . كان اللقاء بهم ضرورة تقتضيها المصالحة، وإصلاح ذات البين ليس بين الشهداء فقد غسلت دماء الشهادة كل ما كان عالقاً في النفوس من حساسيات دنيوية، وإنما للخروج

برؤية واحدة للمصالحة بين الأحياء ، حيث ما تزال الخلافات مشتعلة رغم وطأة النظام وقسوته التي كانت وحدها كفيلة بتوحيد المواقف . كان اللقاء بالشهداء صعباً لسبب وحيد ، هو المساحة الشاسعة التي يحتلها قصر كل شهيد في الجنة التي عرضها السماوات والأرض ، ولهذا فقد كان الانتقال من موقع شهيد إلى موقع شهيد آخر ، يقتضي وقتاً ليس بالقصير ، وربما كان لقاء العزي محمود بالعلامة الشهيد جغمان – وهو من أقدم شهداء اليمن– من أهم اللقاءات التي نجحت في وضع النقاط على الحروف . ومن حسن الحظ أن يتم ذلك اللقاء بحضور عدد من الشهداء، وفي مقدمتهم الشهيد الشاب حميد بن حسين الأحمر ، الذي قال عنه الشهيد جغمان: إنه قتل معه قبل خمسين عاماً، وعندما طلب العزي محمود التوضيح قال العلامة الشهيد جغمان : ((لقد ذبحني الطاغية الكبير في أرض حاشد أو قريب منها ، وقد رأى الطاغية أنه لم يتحرك لمصرعي رجل من رجالات الشعب، ولاقبيلة من قبائله ، وأن أبناء الشعب تلقوا خبر نهايتي كما لو تتلقى السائمة خبر مصرع واحدة منها ، إنه موقف واحد ، موقف الشعب ، وموقف السائمة .. بل قد يكون الأمر أسوأ من ذلك ، فالسوائم تذبح لبلاهتها فقط ، أما الأدميون في بلادنا ؛ فإنهم يذبحون لأنهم منافقون وأنانيون ، ولأنهم بِلْهِ أيضاً ومجانين ، لو أنكرت همدان في ذلك الحين البعيد مصرعي ، بل لو سألت عن السبب، وطالبته ببينات الحكم، وحيثياته، وأدلته لتوقفت يد الجزار عن الذبح .. ولتبين للجزار أنه لا يمتلك قطعاناً من الشياه ، وإنما يحكم شعباً من الأحرار ، ولو حدث ذلك ما قُتل حميد ، ولا والده ، ولا عبد اللطيف ، ولا غيرهم . ألا ترون بعد هذا أن حميداً قتل يوم قتلت؟ إن الشعب بسكوته عن قتل واحد من بنيه ؛ إنما يعني بموقفه هذا أنه قد أخر مبدأ الإباحية للدماء، ومنح الحاكم

حق الذبح لمن يشاء ومتى يشاء .. وهذا يعني بالطبع أن الشعب قد صبغ نفسه بصبغة الماشية، وتجنس بجنسيتها، ورضي أن يكون له مصير كمصيرها، وبلاهته كبلاهتها ، وأصبح لسان حال كل فرد من أبنائه. ويقول للحاكم الجزار: إن لك الحق أن تذبحني متى شئت !))

قال الشهيد حميد آل الأحمر :

- عفواً يا أستاذنا .. لقد كانت قبائلنا يوم لاقيت مصرعك مخذوعة بالحكم العمادي .. تضعه موضع التقديس، ولم تكن تشك فيه أو في نواياه ، وقد حملتها فوق طاقتها إذا طلبت منها أن ترتفع إلى مستواك من الفهم في ذلك الوقت المبكر .
- أنا لم أحملها فوق طاقتها، وإنما ذكرت الواقع المرير ، ونواميس التاريخ والاجتماع لاتفرق بين الجاهل والعالم .. في عقوبة الجهل لهذه الأمور ، هي الموت، وسم الحية لا يفرق بين من يعرف الحية ومن يجهلها، ومع ذلك؛ فقد كان في بلادنا علماء الدين، وكان عندهم سلاح الدين، يستطيعون أن يشهروه في وجه الطغاة، ويضعوا حداً لطغيانهم منذ البداية .
- هاأنت ذا من علماء البلاد الأفذاذ ، جربت أن تتحرك فلقيت مصرعك .
- وماذا في هذا يا حميد ... ؟ لقد كان من الممكن أن ينتفع العلماء بدمي، ويستميتوا في إنكار هذا الحادث حتى لا يكون تكراره سهلاً على الظالمين ، والويل لأمة لا تجد إلاَّ رجلاً واحداً جريئاً في سبيل الحق)) [١٥] .

حقاً إنها ملحمة تحرير ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك ، لأن صوتاً في هذا العمق، وهذا المدى من التحريض من شأنه أن يحرك الصخور، وليس الأدميين فحسب ، ولأن "مأساة واق الواق" ملحمة أكثر منها رواية، فقد استحضرت التاريخ ممثلاً في أبرز شخصياته الأسطورية والحقيقية، وكما رأيناها تستحضر باقتدار المرأة اليمنية ممثلة بـــ "لميس" ، وتضعها في ذلك الجو الأسطوري الرهيب، وعند المدخل من هذا العمل البديع لتشد القارئ، وتضاعف من شغفه لمتابعة ما يدور في ذلك العالم الغريب والمدهش، فقد استحضرت كذلك ، سيف بن ذي يزن ، القائد الذي اختلطت سيرته الواقعية بأوسع سيرة أسطورية عربية وأهمها ، فأخبار التاريخ تحكي أنه استعان بالفرس لإخراج الأحباش من اليمن، وكتّاب الأساطير يقولون: إنه استعان بالجن ليوحد العرب، ويمنع الأحباش من سرقة كتاب النيل، من أن يوقفوا تدفق جريانه إلى مصر العربية .

لسيف بن ذي يزن إذاً ، وجود في هذا العمل الملحمي، وقد التقاه العزي محمود في قصره المسمى "قصر غمدان" في الجنة تقديراً لنضاله الإنساني، وكما أدهش قصر غمدان الجديد زائره القادم من الدنيا بعد ما ذاق مرارة "سجن غمدان" القديم ، بعد أن تهدم، وحوّله الطغيان إلى سجن ينـــزع عنه هالته التاريخية، ويجعل اسمه مصدر رعب لا رمز اعتزاز وافتخار. وكان لقاء الحفيد بالجد الأقدم مناسبة ليعرض الحفيد على الجد رؤيته التي تبناها في سفره، وفي كتاباته الأخيرة التي فحصها في هذا العمل على لسان "لميس" بأن على اليمنيين أن يحرروا أنفسهم، وإلاَّ فإن العار لن يفارقهم ، وإنها ستمنع حتى السماء من مساعدتهم حتى يشعروا بمسئوليتهم، وهم قادرون على ذلك.

تحدث في اللقاء سيف بن ذي يزن بعد أن استمع إلى أحاديث وحوارات شتى ، شارك فيها الخليفة عثمان بن عفان الذي اعترف أن أحد عماله كان وراء هدم قصر غمدان ، ومما قاله سيف: ((أما أنا فرأيي مختلف عن رفاقي مع احترامي لحق الصحبة، وأنا أشعر بأني لازلت مسئولاً عن شعبي، وعن بلدي ، ألا ترون أن قصري بني على غرار قصر غمدان، ولو تجولتم في حدائق فردوسي لرأيتم فيها سدوداً، وجبالاً ، وعيوناً صغيرة ، وسيولاً، وشلالات تنحدر من القمم، ولرأيتم مجموعة ضخمة من أجيال شعبي وقبائله ممن دخلوا الجنة قد أقمت معهم نظام أجدادنا من معين، وقتبان، وسبأ،وحمير. لقد كان لهم مجالس للقبائل، ومجلس نيابي، وإدارات، ومنظمات شتى ، تعرف لها نظائر هنا في فراديسنا ، وجنة الأخرة ليست في رأي حمير إلاَّ استمراراً متطوراً لجنتنا في سبأ ، ألم تسمعوا القرآن الكريم الذي يقول: لقد كان لسبأ في مسكنهم أية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم، واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور)) ؟ [١٦] .

-٦-

منذ بداية الرواية التي صاغت ملحمة النضال السياسي لليمنيين ضد النظام الاستبدادي الكهنوتي الذي كان جاثماً على صدر الشعب ومشاهدها تتنامى في منحى تصاعدي لا يكتفي برصد الأفعال والشخصيات التي عانت وقاومت من أجل إنقاذ الوطن المستباح بل تمكنت ضمن وعي سياسي تاريخي تراجيدي من العمل على خلق حالة من التذمر والرفض المؤديين إلى الثورة . وربما كانت المشاهد الأخيرة بواقعيتها وواقعية شخصياتها أكثر مشاهد الرواية تحريضاً واستخداماً لمفردات الصراع السياسي والصراع الفكري ودحض

التأويلات الخاطئة للدين وللخلافة التي كان الحكام الطغـــاة يســـتغلون بهـــا البسطاء والسذج من الناس ، فضلاً عن فضح الأسلوب الذي كان الطغاة قد عمدوا إليه في آخر حياتهم وهو استمالة بعض الشرائح إلى صفهم رغم مـــا تعانيه من ظلم شأنها شأن بقية فئات الشعب المظلوم والمحروم .

كان مشهد "المؤتمر الكبير" وما تبعه من مشاهد المحاكمـــة ذروة هـــذا العمل الروائي ونتيجة موضوعية عميقة تحتاج إلى دراسة مســـتقلة تكشـــف المزيد عن ملامح شخصياتها وأدوارهم في التاريخ القديم والحديث ، والروائي باستعادته لبعض الشخصيات التاريخية والثقافية إلى ما تمثله في نفوس اليمنيين بل في نفوس كل المسلمين في أنحاء العالم من محبة واحترام إنما ليحافظ علـــى مشاعر الأخوة الوطنية ويقطع الطريق على محاولة الطغيان استمالة أو تحييـــد طائفة من المواطنين ظهر من بين صفوفها أبطال ودعاة للحق وشهداء في سبيل الثورة والدستور .

لقد تم اختيار الشهداء اليمنيين للإمام علي بن أبي طالـــب كـــرم الله وجهه، ليكون رئيساً للمؤتمر ، ومن ثم رئيساً لمحاكمة طغاة اليمن ، وكان نجله الشهيد الإمام الحسين عليه السلام ، عضواً كما كان الإمام زيد بـــن علـــي رضوان الله عليه ، المدعي العام ، وقد بدأ مرافعته على النحو الأتي : ((يـــا أمير المؤمنين .. يا حضرات الشهداء أيها الصديقون جميعاً والصالحون: لأول مرة في تاريخ الجنة تشكل محكمة وتعقد محاكمة ، ولم تحدث هذه الســـابقة الخطيرة إلاَّ لأن أحداثاً خطيرة وراءنا في الحياة الدنيا تجـــري في غفلـــة مـــن الشرائع السماوية والمبادئ البشرية ، وفي معزل بعيد عن الضمير الإنســـاني ، أحداثاً بشعة لا سابقة لها في تاريخ الحياة والأحياء ، أنه يوجد في شعوبنا اليوم في الحياة الدنيا شعب عربي محروم من حق الحياة على وجه الأرض سلبه هذا

الحق شخص واحد اغتصب الحكم بالقوة والعنف والإرهاب والخديعة ، ومن المخجل والمحزن أن هذا الشخص يدعي أنه من آل البيت ، وأوهى من ذلك أن يدعي الحكم بمذهب آل البيت ، فهو لا يكتفي أن يكون طاغيته كسائر طغاة الأرض الذين سيبطشون بالناس ويرتكبون الجرائم ويعترفون للتاريخ بأن ذلك على مسؤوليتهم الشخصية ، أو على مسؤولية القوانين التي يضعونها أو يختارونها، بل أنه يفعل أشنع ما يفعله الطغاة ويستتر وراء مبادئ الإسلام ، بل وبالسخرية القدر أنه يستتر وراء مذهبي أنا الذي قاتلت هشاماً حتى الموت لأنه طاغية ودعوت الناس إلى قتله وقتاله ، وقررت في مذهبي وجوب الخروج على الظالمين من أية سلالة وفي أي عصر)) [١٧] .

ذلك جزء يسير من مقدمة المرافعة القانونية التي مهد بها الإمام زيد لمحاكمة الطاغية واعترف أنني قاومت إغراء الاستزادة من الاقتباس رغم ما تتسم به المرافقة من أهمية ، وما حرصت على طرحه من حقائق تاريخية وأفكار من شأنها أن تحافظ على الروح الوطنية وتمنع حالة التمزق في بلد متجانس روحياً وتاريخياً لا أقليات دينية أو قومية داخل صفوف أبنائه العرب والمسلمين . وقطع الطريق على كل الطامعين السياسيين الذين يرون في المذهبيات والعرقيات ؛ مدخلاً إلى بناء الزعامات وتحقيق بعض المكاسب السياسية الهزيلة، ومن حسن حظ اليمن واليمنيين أن الشهداء، وهم الرموز الخالدة للوطن قد كانوا من مختلف المناطق، ومن كل الأسر التي تمثل في واقع الأمر أسرة يمنية واحدة .

وفي المؤتمر ألقيت كلمات لعدد من الشهداء الذين أوضحوا مواقفهم مما حدث لهم ولوطنهم في غياب حكم العدل والعقل. حكت ذلك المحاكمة التي انتهت بوضع الطاغيين في نار جهنم جراء ما ارتكبا في حق اليمن وأهله .

وبعد ذلك تدارس الشهداء توقيع عهد شرف يحفظ لليمن حريتها، ووحدتها، وسلامة أبنائها ، ومن أهم بنوده : إلغاء نظام الإمامة حرصاً على استبداله بنظام يمثل الشعب على أسس ديمقراطية سليمة، ويطمئن المواطنين في المناطق العليا والسفلى، وفي الجزء المحتل والمعتل إلى العيش على قدم المساواة الكاملة في ظل وحدة شاملة . كما يطمئن المواطنين إلى إمكان السير في طريق الوحدة العربية . وتحقيق خطواتها الأولى في الانضمام إلى الجمهورية العربية المتحدة)) [١٨] .

لقد انتهى المؤتمر الكبير وأنهت معه المحاكمة للطغيان تلك التي وضعت على كاهل الشعب بكل فئاته الموحدة والمتضافرة في شماله وجنوبه مهمة الخلاص االوطني والتحرر من الاستعباد والاستعمار . وصار في إمكان العزي محمود أن يعود من مغامرته الروحية الحارة العميقة لينقل ما رأى وما سمع إلى أبناء وطنه ممن كانوا يواصلون كتابة ملحمة الحرية بالدماء الزكية ويحولون دوائر الخيبات والانكسار إلى انتصار حاسم وسريع .

-٧-

تبدأ المشاهد في هذا العمل الروائي الملحمي الذي يجمع بين الحقيقي والخيالي والسردي والشعري ، تبدأ سردية عادية الأسلوب ثم تتصاعد معها الشعرية لتصل إلى أقاص لا يرقاها إلاَّ خيال شاعر موهوب ومتمرس ، وتم ذلك التصاعد الشعري دون أن يقلل من واقعية البعد النضالي والإنساني لهذا العمل الإبداعي، أو تعمل الشعرية على تفريغ المشاهد من واقعيتها أو إجهاض الهدف الموضوعي، وهو الإقناع وإعلان الحجة بكل ما يلزمها من براهين وأدلة. وبناءً على ذلك يمكن القول بأن شعرية "مأساة واق الواق" تتجلى في

مستويين اثنين ، المستوى الأول وهو شعرية الموقف ، حيث يستخدم الروائي كل الإمكانات التي توفرها شعرية المكان والزمان في مشاهد يجد القارئ نفسه معها محاطاً بما لم يكن يخطر على بال من حديث الملائكة إلى حوار الشهداء وأحاديثهم الراقية عن المشكلات الأرضية وكيف أن الشهداء لا يزالون ينظرون إليها بإحساس عميق وصادق وكأنهم يعانون — في حياتهم الجديدة– من آثارها المؤلمة . أما المستوى الثاني من مستويات الشعرية في واق الواق ، فهو الخاص باللغة ، إذ أول ما يتبادر إلى ذهن القارئ أن الرواية ليست مكتوبة بلغة جزلة ورصينة فقط ، بل تبدو أغلب أجزائها وقد كتبت بلغة شعرية متألقة بالإضافة إلى الإيجاز والتكثيف وهما من صفات الشعر لا النثر ؛ ولن نشير في هذا الصدد إلى تلك النماذج من الشعر التي تخللت بعض المشاهد حيث ينقطع الكاتب عن السرد ليختار مقطعاً شعرياً أو جزءاً من قصيدة من قصائده تمجيداً لموقف أو استحضاراً لذكرى ، كما حدث عند الإشارة إلى سقوط ثورة ٤٨ المغدورة .

وإذا كان السرد اللغوي في هذا العمل الروائي الملحمي قد نهض على ركيزتين متضافرتين ، الأولى اللغة الواقعية التي يسعى من خلالها الكاتب إلى سرد حقائق إخبارية ووقائع تاريخية بدلالاتها المباشرة ، فإن الركيزة الثانية وهي اللغة الشعرية قد نجحت في أدائها الجمالي وفي دلالاتها الخفية والمضمرة كهذا النداء الذي تجمعت فيه ملامح عالية من منطق الشعر واستعاراته وهو مقتبس من فصل ضم "مشاهد القبور" إذا جاز الوصف، وموجّه إلى أفراد الأسر الكبيرة الذين كانوا يتشاغلون بمناصبهم ومكاسبهم الدنيوية المؤقتة عن دماء آبائهم وإخوانهم ممن ذبحهم الجلاد ((أيتها الأسر المنكودة المهددة في صنعاء وفي غيرها ... إنكم تعيشون في عهد خطر ينشر أخلاق الغدر فليفكر

كل منكم في أقاربه ، فربما جاء يوم يأخذه منهم الجزار ويقطع رأسه في المذبح، ثم يرجع إليهم ويده ملطخة بدماء قريبهم فيعطيهم الثمن ويستمر في العطاء ، حتى يرتبط مصيرهم بمصيره ويصبح قاتل قريبهم هو الملاذ المرتجى . أيتها الأسر التي تأكل من دماء ذويها .. أخجلي وليتمزق أديم الوجوه من الحياء والندم !! لا بأس أن تعيشي، ولكن البأس كل البأس والعار كل العار أن يجنب الرجال ، ويعجزوا عن كل عمل ونضال وتعبير عن السخط والوفاء الصادق فلا يعبروا عن وجودهم إلاَّ بأخذ المرتبات أو الخضوع الذليل المهين مجاناً بحجة الخوف من البطش وهو عذر أقبح من الذنب .

أيتها البيوتات والأسر ... تمزقي إرباً إربا ، وعيشي أفراداً أفرادا ، وليهرب كل حبيب من حبيبه ، قبل أن يبعه إلى الجزار إن من يقول فيكم الآن يا أبي أو يا أمي أو يا أخي أو يا أبني ، قد يستبدل بهذا النداء ما هو أحب إليه ذات يوم وانفع له فيقول يا وظيفتي ويا مرتبي ويا مستقبلي ومصلحتي ، ... وما يدريكم أنه سيأتي يوم عليه يتغزل في هذا المرتب غزل العشاق أو يتفلسف فيه فلسفة الخيانة والجنون))[١٩] .

وإذا كان الصوت السردي قد اختفى في هذه المشاهد القبورية، وبدت وكأنها خطابات شعرية مبتورة أو متشظية، فإنها تمثل ضرباً من الحوار الباطن الموظف عن طريق ضمير المتكلم، ليخدم ما قبله وما بعده من مشاهد وشخصيات. وعلى الرغم من أن النقاد العرب بخاصة لم يتفقوا بعد على مفهوم محدد للشعرية، فقد تجنبت الخوض في مفهومات هذا المصطلح معتمداً على المعنى السائد عنه في الأذهان وهو قريب إلى حد ما إلى ما التفت إليه جون كوين ، في كتابه "النظرية الشعرية" حين قال: ((بعد هذا ومن خلال تردد استخدام هذه المصطلحات ، أصبحت كلمة "الشعر" تطلق على كل

موضوع يعالج بطريقة فنية راقية)) [٢٠] . ويرتبط بشعرية الموقف هذا الاستخدام الرمزي لاسم اليمن الذي استبدله الشاعر بـ (واق الواق) وما يوقظ في النفس من عوالم أسطورية لمدن وشعوب وقارات أصبحت أثراً بعد عين .

أما عن ملحمية الرواية؛ فتكاد تكون من أبرز سماتها، فقد استعرضت جملة موضوعات في عمل واحد ، وجمعت بين الملائكة والبشر ، والشهداء والطغاة ، بين الأرض والسماء بين الجنة والجحيم ، وكل ذلك يؤهل هذا العمل ليكون ملحمة تروي للعالم في وقت من الزمن ما كانت عليه الأوضاع في يمن ماقبل الثورة مستعرضة بطولات المناضلين اليمنيين، وصبرهم في السجون والمعتقلات، وفي ساحات الإعدام عند مواجهة الموت ، ساعة يقتل الابن ذبحاً أمام عيني والده ، وساعة تندب الأم أبناءها الثلاثة، وهي واقفة شامخة تفضح الطاغية الكبير، وتندره عواقب فعلته ؛ وكأنها عراقة "دلف" في الأساطير اليونانية ،والأجمل أن يتم ذلك بأسلوب يتلاءم مع الملحمية، وبلغة شعرية تتناسب والأجواء التي تجمع بين الحقيقة والخيال . ويُلاحظ أن الزبيري استعاض عن آلهة الملاحم التقليدية بالملائكة وبالشهداء الذين صار لهم من القدرة على التحليق والانتقال من مكان إلى آخر ، ما للملائكة أنفسهم من قدرات الطواف والتحليق .

وما أشبه الحديث عن "لميس" في مأساة واق الواق ، وهي تخطر فوق أمواج من اللهب والدماء في آفاق اليمن المأسور بحديث هوميروس في مطلع الأليادة عن تلك الفتاة الجميلة التي كانت " تخطر فوق الثلج ، وتميس على رؤوس الموج [٢١] .

وفي الأخير لا ننسى أن الزبيري كان في هذا العمل الملحمـــي مثـــالاً للمبدع الذي ينتج عمله الروائي الوحيد خارج قوانين الكتابة الروائية ، وهو يذكر بعدد من المبدعين العرب الذين يتركون لمواهبـــهم العنـــان دون تمثـــل لنموذج مسبق ، ومنهم المبدع العربي المغربي الذي رحل أخيراً محمد زفـــزاف ومن بين أهم مقولاته " لست كاتباً وإنما أنا مجرد إنسان يحـــاول أن يعطـــي انطباعات عن هذا العالم مثلما سبق للآخرين أن أعطوا انطباعـــاتهم)) .[٢٢] وليس في كلمة انطباعات – كما وردت هنا –ما يقلل من أهميـــة الأعمـــال العظيمة للمبدعين الكبار في اخلاصـــهم وتواضـــعهم وفي كمـــالهم الأدبي والأخلاقي .

هوامش:

(١) د. عبد الحميد إبراهيم ، القصة اليمنية القصـــيرة ، ص١٧١، دار العودة – بيروت .

(٢) الزبيري شاعراً ومناضلاً : مجموعة من الكتـــاب اليمنـــيين ، ص ٢٥٨ ، دار العودة .

(٣) جون كوين : النظرية الشعرية ، ترجمـــة د. أحمـــد درويـــش، ص٤٠١ ، دار غريب – القاهرة .

(٤) محمد محمود الزبيري : مأساة واق الواق ، ص١٠٥ ، ط. مركز الدراسات والبحوث اليمني عام ٢٠٠٤م .

(٥) المصدر نفسه : ص٢٥ .

(٦) نفسه: ص ٤٩ .

(٧) نفسه:ص٥٨ .

(٨) نفسه: ص٥٩ .

(٩) نفسه : ص٦٢ .

(١٠) جونتر جراس : القط والفار ن ترجمة :د. أبوعيد دودو ، المقدمة ص٥ .

(١١) مأساة واق الواق : ص٦٣ .

(١٢) المصدر نفسه : ص١٨٤ .

(١٣) نفسه : ص٢٠٥ .

(١٤) سفتيان تودروف : مفهوم الأدب ، ترجمة عبـــود كاســـوحه ، ص١١٤ ، منشورات وزراة الثقافة السورية – دمشق .

(١٥) مأساة واق الواق : ص٢١٠-٢١٢ .

(١٦) المصدر نفسه : ص٢٣٣ .

(١٧) نفسه : ص٣٠٦ .

(١٨) نفسه : ص٣٧٩ .

(١٩) نفسه : ص٢٩١-٢٩٢ .

(٢٠) جون كوين : النظرية الشعرية ، ترجمة د. أحمد درويش ، ص٩.

(٢١) هـــوميروس : الإليـــاذة : ترجمـــة دريـــني خشـــبه ، ص١٠ ، دار العودة – بيروت .

(٢٢) محمد زفزاف : مجلة آفـــاق ، العـــدد ٦١-٦٢ ، ١٩٩٩م ، ص ٢٥٦.